

الْفَضْلُ الْخَامِسُ الرجاء

لن يستقيم قلب بالخوف وحده، وإنما لابد معه من رجاء فهما كالجنأحين للطائر يقول أبو علي الروزباري: الخوف والرجاء كجنأحي الطائر إذا استويا استوى الطائر، وتم الطيران، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص وإذا ذهب صار الطائر في حد الموت^(١)، ولو خلت القلوب من الرجاء لانقطعت عن السير ولتعطلت عن التعبد، ولا يمكن أن تتحرك القلوب في سيرها إلى ربها إلا بالرجاء مع الخوف، إن الرجاء عبودية في القلب تبعث على العمل وتدفع إلى البذل والتضحية؛ لأن كل عامل يرجو على عمله ثوابًا، وكل عابد يرجو على عبادته أجرًا وعلى قدر رجائه في الأجر وثقته في مالكة يكون بذله وعمله.

وما أحوجنأ في هذه الأيام إلى طرح الحديث عن الرجاء في قالب منضبط بمنهج أهل السنة لاسيما ونحن في عصر خيمت فيه سحائب من القنوط واليأس، وقعد كثير من الناس عن العمل بسبب ذلك وهذا خداع من إبليس وجنوده، وكم في الناس اليوم من يستبعد كل البعد أن ينتصر الإسلام وأن تعود الجولة له وذلك لغلبة هذه الروح الخبيثة المسيطرة على تلك النفوس الضعيفة التي بهرها وأرهبها ما ترى من تقلب الذين كفروا في البلاد، وانتهاكهم لأعراض المسلمين ومقدساتهم وهذا لون من ألوان الرجاء لابد من بثه في الأمة في هذه الآونة لاسيما ونحن نطرح المعنى العام للرجاء في رحمة الله جلّ جلاله وعدم اليأس والقنوط.

حقيقة الرجاء

الرجاء لغة هو الأمل نقيض اليأس^(١)، وأما تعريف الرجاء اصطلاحاً فهو ثقة القلب وطمعه في رحمة الله وتوقعه للثواب مع حسن العمل.

يقول ابن القيم رحمه الله: الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير، وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب، وقيل: هو النظر إلى سعة رحمة الله^(٢).

اقتران الرجاء بالعمل

الرجاء بغير عمل غرور وتمنٍّ لا ينفع صاحبه، ولا يستقيم رجاء العبد إلا إذا قارنه العمل الصالح والطاعة لله جل وعلا. قال معروف الكرخي: رجائك رحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق^(٣)، قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاءه ثلاثة أمور: أحدها - محبة ما يرجوه، والثاني - خوفه من فواته، الثالث - سعيه في تحصيله بحسب الإمكان، وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانى، والرجاء شيء والأمانى شيء آخر، فكل راجٍ خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات^(٤)، ويقول مفرقاً بين الرجاء والتمنى: إن التمنى يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل فالأول كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذر بها ويأخذ زرعها، والثاني كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذر بها ويرجو طلوع الزرع، ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح

(١) «لسان العرب» (١٤/ ٣٠٩٩ ط. دار صادر.

(٢) «المدارج» (٣٥/ ٢).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» ص [٣٠].

(٤) «الداء والدواء» ص [٥٧].

إلا مع العمل، قال شاه الكرمانى: علامة صحة الرجاء حسن الطاعة^(١)، اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة في اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس في اختياره^(٢)، وهو فضل الله سبحانه بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه ماء الطاعات وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، انتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة كان انتظاره لذلك رجاء محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بقاء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة كان ذلك حمقاً وغروراً قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الْإِنشَاء: ١٦٩]، وذم القائل: ﴿وَلَمَّا رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الْكَهْف: ٣٦]^(٣).

لا قنوط في الإسلام

الرجاء محمود ممدوح لأنه يبعث على العمل، وضده اليأس والقنوط وهو مذموم مرفوض في الإسلام؛ لأنه يقعد عن العمل ويصد عنه ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حكاية عن نبيه يعقوب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يُونُس: ٨٧]، وقال إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الْحَجَّ: ٥٦]، ودعا الله عباده كلهم إلى عدم القنوط واليأس من رحمته مهما عظمت الذنوب وكثرت الخطايا فرحمة الله أوسع وأعظم قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

(١) «المدايح» (٢/ ٣٥).

(٢) كمن ألقى بذرة صالحة في أرض طيبة وتعاهدا وسقاها وانتظر نباتها.

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» ص [٣٠٤].

أصل الإيمان المحبة والخوف والرجاء

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فابتغاء الوسيلة طلب القرب منه بالعبودية والمحبة فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب والخوف والرجاء، يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي يتقربون إلي بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعون من دوني؟ فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء^(١)، وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء، فكل محب راج خائف بالضرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه وكذلك خوفه فإنه يخاف سقوطه من عينه وطرده محبوبه له وإبعاده واحتجابه عنه فخوفه أشد خوف ورجاؤه ذاتي للمحبة فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له لما يحصل به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه وبره وإقباله عليه ونظره إليه بعين الرضا وتأهيله في محبته وغير ذلك مما لا حياة للمحب ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه فرجاؤه أعظم رجاء وأجله وأتمه^(٢).

باب الرجاء مفتوح لا يغلق

قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. هذه آية عظيمة في عموم رحمة الله وشمولها لكل شيء فلا أرحم من الله وأرأف منه سبحانه ومن عظيم رحمته أنها وسعت كل شيء كما قال الله أيضاً إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [الحج: ٧]. أي: رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم^(٣).

(١) «تهذيب المدارج» [٢٩٧-٢٩٩].

(٢) المصدر السابق [٢٩٩].

(٣) «المصباح المنير في تهذيب ابن كثير» ص [١٢٠١].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَرُ: ٥٣]. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ﴾ أي: لا تيأسوا منها فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وتقولوا: قد كثرت ذنوبنا وتراكت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً من الشرك والقتل والزنا والربا والظلم وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة وصفان لازمان ذاتيان لا تنفك ذاته عنهما ولم تزل آثارهما سارية في الوجود ماثلة للموجود، تسح يده من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد في السر والجهر، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته^(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [النَّجْم: ١٠]. مفهوم الآية الكريمة أنهم إذا تابوا لم يعذبوا قال الرازي في تفسيره ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ يدل على أنهم لو تابوا خرجوا من هذا الوعيد وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٥٤]. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أمانة من الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها - أي عليكم الأمان لن يعاقبكم بعد توبتكم منها - ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: قضى الرحمة بخلقه سبحانه وتعالى^(٣).

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ص [٨٥٩].

(٢) «تفسير جزء عم» (١/ ٢٣٤) للشيخ مصطفى العدوي، ط. ماجد عسيري.

(٣) «تفسير الطبري» (٧/ ٢٠٨).

وقال الله عزَّجَل: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]. وعسى من الله واجبة كما يقول أهل العلم بالتفسير.

والأحاديث في ذلك عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرة ومنها ما رواه مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقول الله عزَّجَل: من تقرب مني شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، ومن لقيني بمثل الأرض خطايا لا يشرك بي شيئًا لقيت به بمثلها مغفرة»^(١).

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيًا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله، فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(٢).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده: إن رحمتي تغلب غضبي»، وفي رواية «سبقت غضبي»^(٣).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»^(٤).

وفي الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعاذ رديفه على الرحل قال: «يا معاذ» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ» قال: لبيك

(١) رواه مسلم برقم [٩٣].

(٢) رواه البخاري برقم [٥٩٩٩]، ومسلم برقم [٢٧٥٤].

(٣) رواه البخاري برقم [٧٥٥٣]، ومسلم برقم [٢٧٥١].

(٤) رواه مسلم برقم [٢٧].

يا رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً، قال: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار» قال: يا رسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: «إذا يتكلموا» فأخبر بها معاذ عند موته تأثراً^(١).

في الحديث أن من مات على التوحيد حرمه الله على النار وأدخله الجنة فلا يخلد موحد في النار قط تلك هي عقيدة أهل السنة.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣٦]. وقول عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الْمَائِدَة: ١١٨]. فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى فقال الله عَزَّجَلَّ: «يا جبريل، اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما قال -وهو أعلم- فقال الله تعالى: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»^(٢).

وقد علم أن شفاعته النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنواع ومنها شفاعته لأهل الكبائر من أمته لكي يدخلوا الجنة، وشفاعته لأقوام دخلوا النار في أن يخرجوا منها وشفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رفعة درجات المؤمنين في الجنة وهذا مما يبعث في القلب روح الأمل والرجاء في رحمة الله تعالى.

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم»^(٣).

(١) رواه البخاري برقم [١٢٨]، ومسلم برقم [٣٢].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٠٢].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٧٤٩].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوُحُوشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تَسْعًا وَتَسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وروى مسلم في صحيحه عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَقَالُوا: أَعْمَلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا، قَالُوا: تَذَكَّرَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَدَايِنُ النَّاسَ فَأَمَرَ فِتْيَانِي أَنْ يَنْظُرُوا الْمَعْسَرَ وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمَوْسَرِ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَجَوَّزُوا عَنْهُ»^(٣).

فَاللَّهُ رَحِيمٌ يُحِبُّ أَنْ يَرْحَمَ، عَفُوٌّ يُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ أَنْ يَكْرَمَ، الْعَفْوُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْتِقَامِ وَالْفَضْلُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَدْلِ فَتَعَرَّضْ لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَامْلَأْ قَلْبَكَ طَمَعًا فِي رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ جَلْ جَلَالُهُ.

وَالْأَحَادِيثُ وَأَدْلَةُ الشَّرْعِ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي بَيَانِ؛ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ أَوْسَعَ وَأَعْظَمَ، وَأَيًّا كَانَتِ الذُّنُوبُ، وَمَهْمَا عَظُمَتِ الْخَطَايَا ثُمَّ تَابَ الْعَبْدُ مِنْهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَتَّى لَوْ وَقَعَ فِي الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَأَرَادَ أَنْ يَتُوبَ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ تُوْبَتَهُ وَغُفِرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْهُ وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النِّسَاءُ: ٤٨]. فَهَذِهِ الْآيَةُ فَيَمُنْ مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ عِيَاذًا بِاللَّهِ وَمَنْ فَهَقَ الْعَالَمُ وَالِدَاعِيَةُ أَلَا يَقْنَطُ النَّاسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَكَذَلِكَ مِنَ الْفَقْهِ أَلَا يَجْرِئُهُمْ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ وَتَأْمَلْ حَدِيثَ قَاتِلِ الْمِائَةِ كَيْفَ أَنَّ الْعَالَمَ قَالَ لِهَذَا الْقَاتِلِ: وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ ثُمَّ دَلَّهُ عَلَى الدَّوَاءِ النَّافِعِ لِمِثْلِهِ وَأَرْشَدَهُ إِلَى سَبِيلِ الثَّبَاتِ عَلَى التَّوْبَةِ فَقَالَ: «انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ بَهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ

(١) رواه البخاري برقم [٦٠٠٠]، ومسلم برقم [٢٧٥٢].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٦].

(٣) رواه البخاري برقم [٢٠٧٧]، ومسلم برقم [١٥٦٠].

ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء»^(١)، إنه لا يغلق باب الرحمة والتوبة في وجه العصاة إلا جاهل غبي لأن الذنوب مهما تعاظمت فرحمة الله أوسع، هذا قتل مائة وما عمل خيراً قط سوى توبته وقصده البلدة الصالحة ولكنه دخل الجنة، وهذه امرأة وسوس لها الشيطان وجرها إلى الوقوع في الرذيلة ثم يتحرك الإيمان في قلبها فتريد أن تحدث توبة صادقة فتتألم ويثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على توبتها ليكون ذلك الحديث بشارة ثابتة ودواء نافعا لمن سقط في دركات الخطايا، وأسوته الشهوات، واستحكمت منه الذنوب والسيئات، ألا ييأس أبداً من رحمة الله وألا يقنط منها قط روى مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي حبل من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت خطيئة فاقمها علي، فدعا نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليها فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني» ففعل فأمر بها نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ فقال: «لقد تاب توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لو سعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

الرجاء دواء

إنه لا يحدث بالرجاء كل أحد فإن من الناس من يزداد ضلالاً إذا سمع أدلة الرجاء؛ لأن من طبيعة الدواء إذا جاوز الحد أضر وإذا قل عن الحاجة لم ينفع ولم يؤثر يقول ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان: إما رجل غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله، فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة فلا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تقلب في حقه سموماً، ولهذا يجب على واعظ الناس أن يكون متلطفاً،

(١) رواه البخاري برقم [٣٤٧٠]، ومسلم برقم [٢٧٦٦].

(٢) رواه مسلم برقم [١٦٦٩].

ناظرًا إلى مواضع العلل، معالجًا كل علة بما يليق بها وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه لإصلاح المرض، وقد قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من مكر الله ^(١)، وإذا قال ذلك الشيخ في أهل عصره - أقصد المبالغة في التخويف - فإن عصرنا أحوج مرات ومرات لذلك لغلبة المنكرات واستحكام الغفلة، وتعدد وتنوع الشهوات المزينة التي تطنخ وتلهي عن الله والدار الآخرة، ولكن بعض الناس غلبت عليهم حالة عجيبية من القنوط واليأس حيث سؤل لهم الشيطان استحالة الخروج مما هم فيه من معاصٍ وسيئات وغرهم بذلك وأقعدهم فيما هم عليه وقد سمعت بأذني بعض العصاة يقول: هكذا هكذا نحن داخلون النار، وهذا من أخطر الوسوس وأخبث الوسائل التي يتخذها الشيطان في إغراق أولئك في سيئات أعمالهم ورضاهم بالحياة الدنيا من الآخرة وإيثارهم نعيمها العاجل على نعيم الآخرة العظيم المقيم فمثل هؤلاء يحتاجون إلى التذكير بواسع فضل الله وعظيم رحمته وقبوله التوبة من كل من تاب إليه مهما عظمت منه الذنوب والمعاصي، فربنا غفور رحيم، تواب حلیم، ودود كريم جَلَّ جَلَّالُهُ وتقدسْت أسماؤه.

صفحات صادقة

المؤمن الصادق لا ينقطع رجاءه في الله أبدًا، لأنه يعلم ويوقن أن الله أرحم الراحمين، لا أرحم منه ولا أرف منه سبحانه، ولذلك مهما كثرت الذنوب وتنوعت، ومهما عظمت فإن الله يقبل توبة من تاب منها بل ويحب ويقر به، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وكذلك إذا اشتد به بلاء وطالت عليه محنة فإنه لا يزال راجيًا رحمة ربه متطلعًا إلى فجر الفرج، وصبح العافية: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِلُّ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾

(١) «مختصر منهاج القاصدين» ص [٣٠٦] ط. دار العقيدة.

[التَّوْرَى: ٢٨]، وإذا أردنا أن نقف على بعض الصور الإيمانية في هذا الباب فإننا نجد ذلكم النبأ الخالد لهذا النبي الكريم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام حينما يتلى بها وقع من أبنائه تجاه الكريم يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجده لم ينقطع أمله ولم يضعف رجاءه في رحمة الله عَزَّوَجَلَّ قال تعالى:

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يُوسُفَ: ١٧-١٨]، وحينما اشتد البلاء أكثر بذهاب ولده الآخر نرى هذا الرجاء باقياً وهذا الأمل قوياً، وذلك حينما قال كبيرهم: ﴿ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّا أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (٨١) وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يُوسُفَ: ٨١-٨٣]، ثم أمرهم أبوهم يعقوب - صلوات الله وسلامه عليه - بالذهاب ومحاولة البحث عن يوسف وأخيه وألا يياسوا من رحمة الله وفرجه كما قال الله تعالى عنه: ﴿ يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يُوسُفَ: ٨٧]، قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ فإن الرجاء يوجب على العبد السعي والاجتهاد فيما رجاه وألا يياس مما يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه: ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فإنهم لكفرهم يستجدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين، ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاءه لرحمة الله وروحه (١).

ونشهد رَوْحَ الرجاء وحقيقته في هذا الحديث الرائع العظيم الذي هو كالنهر الفياض بالمعاني العالية الكريمة إنه حديث كعب بن مالك وفيه أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا

رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله يسخطك علي، وإن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقيبي الله عز وجل، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» وفي آخر الخبر أنزل الله عز وجل توبته وقال: قلت: يا رسول الله، إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت^(١).

وتلمح هذا الرجاء العظيم أيضاً في حادثة الإفك المشهورة وفيها تقول أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجلس قال: ولم يجلس عندي منذ قليل ما قيل وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسوف يبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمي: أجيبني عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد عرفت، أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، قالت: ثم تحولت فاضطجعت

(١) رواه البخاري برقم [٤٤١٨]، ومسلم برقم [٢٧٦٩].

على فراشي قالت: وأنا والله أعلم حينئذٍ أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت: فوالله ما رام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت: فلما سُرِّي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة أما الله عَزَّجَلَّ فقد براك»^(١).

ومن كلمات الصالحين في الرجاء ما يلي:

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه.

يقول يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأنني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفوها وأحرزها وأنا بالآفات معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالوجود موصوف.

وقال أيضًا: إلهي، أحلى العطايا في قلبي رجاءوك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إلي ساعة يكون فيها لقاءك^(٢).

وقال ذو النون المصري في دعائه: اللهم إليك تقصد رغبتي وإياك أسأل حاجتي، ومنك أرجو نجاح طلبتي، وبيدك مفاتيح مسألتي، لا أسأل الخير إلا منك، ولا أرجوه من غيرك، ولا أيأس من روحك بعد معرفتي بفضلك^(٣).

(١) رواه البخاري برقم [٤٧٥٠]، ومسلم برقم [٢٧٧٠].

(٢) «تهذيب المدارج» ص [٢٩٨].

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٣٣٣/٩).

وأنشد الشافعي في مرض موته:

جعلت الرجا مني لعفوك سلماً

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي

بعفوك ربي كان عفوك أعظماً^(١)

تعاضمني ذنبي فلما قرنته

قال أحمد بن العباس النمري:

أرى بجميل الظن ما الله صانع

إنني لأرجو الله حتى كأني

ويقول محمود الوراق:

رب جميل وأنت مالك أمري

حسن ظني بحسن عفوك يا

ل جميعاً وكنت موضع سري

صنت سري عن القرابة والأهـ

فلا تخزني يوم نشري

ثقة بالذي لديك من السـ

لي حجة ولا وجه عذر

لقني حجلي وإن لم تكن يارب

أي أخي، رحمة ربنا واسعة، والله قريب ممن دعاه، سميع لمن ناجاه، عليم بمن تاب إليه ورجاه، ينصر من تولاه، وإذا استُغفر غفر، وإذا استُرحم رحم، وإذا دُعي أجاب، وإذا سئل أعطى، ولكن أين أنت من الدعاء؟! أين أنت من التضرع إلى الله والتملل والتمسك والتذلل بين يديه؟! سل الله وأنت موقن بالإجابة، واستغفر الله وأنت واثق من حصول المغفرة، استعن بالله وكن على يقين أن عون الله حاصل لك، إن وقعت في معصية فاستغفر الله وتب إليه ولا يمل الله حتى تمل، ولا يقطع الله عنك رجاء أبداً، وإن ابتليت فأعظم رجاءك في رحمة ربك والهج بالدعاء ودم عليه حتى يفرج ما بك قال رسول الله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم في الدعاء فإن الله صانع ما شاء لا مكره له».

وفي لفظ: «ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»^(٢).

(١) «السير» للذهبي (١٠/٧٦).

(٢) رواه البخاري برقم [٦٣٣٩]، ومسلم برقم [٢٦٧٩].

وقد نهى النبي عن هذه الكلمة «اللهم اغفر لي إن شئت» وذلك والله أعلم لوجوه **الأول-** أنه يشعر بأن الله له مكره على الشيء وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه فكأن الداعي بهذه الكيفية يقول: أنا لا أكرهك إن شئت فاعفر وإن شئت فلا تغفر.

والثاني- أن قول القائل «إن شئت» كأنه يرى أن هذا أمرٌ عظيم على الله عزَّ وجلَّ فقد لا يشاؤه لكونه عظيمًا ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وليُعْظَمَ الرِّغْبَةُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ».

الثالث- أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله كأنه يقول: إن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل فلا يهمني ولهذا قال: «وليُعْظَمَ الرِّغْبَةُ» أي: يسأل برغبة عظيمة والتعليق ينافي ذلك^(١).

لزوم الجمع بين الخوف والرجاء

أدلة القرآن والسنة متظاهرة متضافرة على لزوم الجمع بين الخوف والرجاء وكثير من الناس مغرور مخدوع بالرجاء وحده فتراه إذا لامه لائم على معصية قال: يا أخي، ربنا غفور رحيم، وبعضهم يقول: إن لم ندخل نحن الجنة من سيدخلها! يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وللجهال من هذا الضرب من الناس غرائب وعجائب كقول بعضهم:

وكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله.

وقول الآخر: ترك الذنوب جرأة على مغفرة الله واستصغار لها، وقال أبو محمد ابن حزم: رأيت بعض هؤلاء من يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من العصمة^(٢).

(١) «القول المفيد» [٥٨٠] ط. دار ابن الجوزي.

(٢) «الداء والدواء» ص [٢٨].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعانَد^(١).

إن حال كثير من الناس ينطق بهذه الغفلة المقننة التي خدعهم بها الشيطان الرجيم، نعم إن الله غفور رحيم ولكن عذابه أليم وعقابه شديد فهو متصف بالوصفين معًا وقد جمع الله عَزَّجَلَّ بين هذا وذاك في آيات كثيرة من كتابه، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٣-١٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [١٣] وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الأنفال: ١٣-١٤].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»^(٢).

وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»^(٣).

إن الركون إلى الرجاء وحده خطر، بل هو سبيل للوقوع في المعاصي وارتكابها لذلك لا بد أن تستعمل سياط الخوف لتنبية القلوب من غفلتها وردعها عن غيرها، ومنعها من التهادي في سيئات أعمالها، وكما أن الخوف لا يصلح وحده فكذلك الرجاء لا يصلح وحده، بل لا بد منهما معًا وبهما يسير العبد إلى ربه وإلا كان الهلاك والزلل والفساد والخلل، عيادًا بالله جَلَّ جَلَّالُهُ، يقول الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: والواجب على المؤمن

(١) المصدر السابق، ص [٣٦].

(٢) رواه مسلم برقم [٧٢٥٥].

(٣) رواه البخاري برقم [٦٤٨٨].

والمسلم أن يعلم أن الإسلام لا يقر الأمن من مكر الله كما لا يقر اليأس من روح الله، فهو بين هذا وهذا، فهو يسير خائفًا راجيًا يخاف من الله عَزَّجَلَّ أن يعاقبه أو أن يستدرجه وأنه إذا فعل ذنبًا لا ييأس من روح الله عَزَّجَلَّ^(١)، ويقول الفوزان حفظه الله: هذا مذهب أهل السنة والجماعة وهو بين مذهب المرجئة الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية فإذا كان الإنسان مؤمنًا بقلبه فلا تضره المعصية فهو لاء آمنوا مكر الله ويقولون: الأعمال لا تدخل في حقيقة الإيمان فيدخل الجنة وإن لم يعمل شيئًا عندهم، وهذا مذهب أفسد الدنيا وتحلل الناس من الدين بسببه، وبين الوعيدية الخوارج الذين يكفرون بالكبائر التي دون الشرك^(٢)، لذلك إذا قلنا بوجوب الرجاء فلا بد من القول بعدم الإرجاء ذلكم المرض الخبيث الذي ينخر في جسد الأمة ويقعد أكثر الناس عن طاعة الله عَزَّجَلَّ اعتمادًا على معناه الباطل ولذلك فليعلم أن الرجاء شيء والإرجاء شيء آخر.

ثمرات الرجاء وفوائده

وكما أن الرجاء يبرد حرارة الخوف فإن له فوائد كثيرة أخر مشاهدة منها:

إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغنى عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله؛ لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد أن يُرجى ويؤمل ويسأل وفي الحديث: «من ثم يسأل الله يغضب عليه»^(٣)، والسائل راج وطالب فمن لم يرج الله يغضب عليه، فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء وهي التخلص به من غضب الله.

(١) «جامع شروح الطحاوية» (٢/ ١٣٧٨).

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) رواه الترمذي برقم [٣٣٧٣]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» ص [٢٤١٨].

ومنها: أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله، ويطيب له المسير ويحثه عليه ويبعثه على ملازمته، فلو لا الرجاء ما سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب ويزعجه الخوف ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة ويلقيه في دهليزها فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه؛ ازداد حباً لله تعالى، وشكراً له ورضاً به وعنه.

ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها والتعلق بها، فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنی متعبد بها داع بها قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٨٠]، فلا ينبغي أن يُعطَل دعاؤه بأسمائه الحسنی التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي.

ومنها: أن المحبة لا تنفك عن الرجاء فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف فكل راج خائف وكل خائف راج، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون الله عظمة؟!

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه كان ذلك ألطف موقعاً وأحلى عند العبد وأبلغ من حصول ما لم يرجه.

ومنها: أن في الرجاء - من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله - ما يوجب تعلق القلب بذكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته.

ومنها: أن المحب الصادق في رجائه لا بد أن يقارنه أحياناً فرح بمحبوبه ويشتد فرحه به، ويرى مواقع لطفه به، وبره به وإحسانه إليه، وحسن دفاعه عنه، والتلطف في إيصاله المنافع والمسار والمبار إليه بكل طريق، ودفع المضار والمكاره عنه بكل طريق، وكلما فتش عن ذلك اطلع منه على أمور عجيبة لا يقف همه ومقتبسه لها على غاية، بل ما خفي عنه منها أعظم فيدخله من شهود هذه الحالة نوع انبساط ولا ينكر فرح القلب بالرب تعالى وسروره به وابتهاجه وقرة عينه ونعيمه بحبه والشوق إلى لقائه إلا كثيف الحجاب حجري الطباع.

ومنها: سرعة السير وهذا كمن هو سائر إلى مدينة فإذا شارفها ورآها رأى الطريق حينئذ واضحة إليها، واستنار كضياؤها واتصالها بالمدينة وكان قبل مشاهدة المدينة على علم - أو ظن - أنه يجوز معه أن يضيع عن باب المدينة وأما الآن فقد أمن من أن يضيع عنه الباب وكذلك الراجي إذا انقطعت عنه الموانع واستبان له الطريق طمع بالوصول وصارت حاله حال معاين باب المدينة من حين يقع بصره عليه وكحال معاين الشفق الأحمر قرب طلوع الشمس حيث تيقن أن الشمس بعده فتستجمع له قوى الظاهر والباطن على قصد الوصول والعزم عليه لمشاهدته ما هو سائر إليه^(١).

